

فصل

في التحذير من ترك الجهاد رغبة عنه من غير عذر، والحث على تلبية داعي الله إذا دعى للنفير العام

«يا خيل الله اركبي» يريد النبي ﷺ بقوله هذا: يا فرسان الإسلام وحماة العقيدة، هيا أسرعوا وامتلطوا صهوات خيولكم المسخرة لنصرة دين الله تعالى، والمُعَدَّة للقتال . . وهَلُمَّ أيها الرجال إلى لقاء عدو الله وعدوكم . . هَلُمَّ إلى جَنَّةٍ مَلُؤَهَا الرضى والسعادة والسرور . . جنة عرضها السموات والأرض . . هَلُمَّ إلى ساحات الشرف والفداء . . هَلُمَّ إلى عِزِّ الإسلام ومجده . . هَلُمَّ إلى النصر والسؤدد . . هَلُمَّ يا فرسان الله إلى الجهاد في سبيله وإعلاء كلمته . . هَلُمَّ إلى دحر الكفر وأهله .

هَلُمَّ إلى الدفاع عن حوزة الدين، والرَّد عن أعراض المسلمين، وحماية الشيوخ والنساء والأطفال والمقدسات . . هَلُمَّ أبطال الإسلام لكسر شوكة الكافرين .

هَلُمَّ يا رجال الله لتحموا بصدوركم أوطان المسلمين . . هَلُمَّ إلى تلبية نداء العزيز الجبَّار حيث يقول لكم: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾ [البقرة: 191].

هَلُمَّ لتكونوا شهداء على الناس . . وشهداء لله . . هَلُمَّ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . . هَلُمَّ إلى عِزِّ الدُّنْيَا ومجد الآخرة .

قال الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: 41].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24].

وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْفِقُوا إِنْ أَنْفَقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا

قِيلَ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [التوبة: 38، 39].

- روى أبو داود (3462) والبيهقي (5/316) وأبو يعلى (5659) وغيرهم، بإسناد لا يخلو من مقال - واللفظ لأبي داود من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ».

- رواه الإمام أحمد (4825)، بإسناده من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِذَا - يعني ضَنَّ النَّاسُ بِالدينَارِ وَالدينَرِ - تَبَايَعُوا بِالْعَيْنِ، وَاتَّبَعُوا أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَتَرَكُوا الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَلَاءً، فَلَمْ يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ».

فائدة في قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41].

- روى أبو يعلى (3413) والحاكم (2549) والطبراني في «الكبير» (4683) وغيرهم، بإسناد صحيح، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه قرأ هذه الآية: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال: أمرنا الله واستنفرنا شيوخاً وشباناً، جهزوني، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر فنحن نغزو عنك فغزا البحر فمات، فطلبوا جزيرة يدفنونه، فلم يقدروا عليها، إلا بعد سبعة أيام، وما تغير.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَىٰ الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38].

قال الإمام القرطبي رحمته الله في «تفسيره» (4/71/74): قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ «ما» حرف استفهام معناه التقرير والتوبيخ. التقدير: أي شيء يمنعكم عن كذا؟ قال: ولا خلاف أن هذه الآية نزلت عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام. والنفر: هو التنقل بسرعة من مكان لأمر يحدث.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَىٰ الْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: معناه اثاقلتم إلى نعيم الأرض، أو إلى الإقامة بالأرض. وهو توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج، وهو نحو من أخلد إلى الأرض. وأصله ثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء

لقربها منها ، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالسكن . وكانت تبوك - ودعا الناس إليها - في حرارة القيظ وطيب الثمار وبرد الظلال - كما جاء في الحديث الصحيح على ما يأتي - فاستولى على الناس الكسل ، فتقاعدوا وتناقلوا ؛ فوبخهم الله بقوله هذا وعاب عليهم الإيثار للدنيا على الآخرة .

ومعنى : ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي بدلاً؛ التقدير: أرضيتم بنعيم الدنيا بدلاً من نعيم الآخرة. ف (ومن) تتضمن معنى البدل .

عابهم الله على إيثار الراحة في الدنيا على الراحة في الآخرة؛ إذ لا تنال راحة الآخرة إلا بنصب الدنيا. قال ﷺ لعائشة وقد طافت راكبة: «أجرُك على قدر نصيبك». أخرجه البخاري (١٧٨٧).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا بَعْدَ بَعْثِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [التوبة: 39].

قال القرطبي: في مسألة واحدة: وهو أن قوله تعالى: ﴿نَنْفِرُوا﴾ شرط؛ فلذلك حذفت منه النون. والجواب ﴿بَعْدَ بَعْثِكُمْ﴾، ﴿وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير. قال ابن العربي: ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثر من اقتضاء الفعل. فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر ولا يقتضيه الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه؛ كقوله: إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا؛ كما ورد في هذه الآية. فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا.

روى أبو داود عن ابن عباس قال: ﴿إِلَّا نَنْفِرُوا بَعْدَ بَعْثِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وَ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 121] نسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122]. وهو قول الضحاک والحسن وعكرمة. ﴿بَعْدَ بَعْثِكُمْ﴾ قال ابن عباس: هو حبس المطر عنهم.

قال ابن العربي: فإن صح ذلك عنه فهو أعلم من أين قاله، وإلا فالعذاب الأليم هو في الدنيا باستيلاء العدو والنار في الآخرة.

قال القرطبي: قول ابن عباس خرّجه الإمام أبو داود في سننه عن ابن نفيح قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية: ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: فأمسك عنهم المطر فكان عذابهم.

وذكره الإمام أبو محمد بن عطية مرفوعاً عن ابن عباس قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فعدت، فأمسك الله عنهم المطر وعذبها به. و﴿أَلِيمًا﴾ بمعنى مؤلم؛ أي موجع.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ توعدّ بأن يبذل لرسله قوماً لا يقعدون عند استنفره إياهم. قيل: أبناء فارس. وقيل: أهل اليمن. ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ عطف. والهاء قيل لله تعالى وقيل للنبي ﷺ.

والتناقل عن الجهاد مع إظهار الكراهة حرام على كل أحد. فأما من غير كراهة فمن عينه النبي ﷺ حرم عليه التناقل وإن أمن منهما فالفرض فرض كفاية؛ ذكره القشيري. وقد قيل: إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم. وظاهر الآية يدل على أن ذلك على وجه الاستدعاء فعلى هذا لا يتجه الحمل على وقت ظهور المشركين؛ فإن وجوب ذلك لا يختص بالاستدعاء، لأنه متعين.

وإذا ثبت ذلك فالاستدعاء والاستنفر يبعد أن يكون موجباً شيئاً لم يجب من قبل؛ إلا أن الإمام إذا عين قوماً وندبهم إلى الجهاد لم يكن لهم أن يتناقلوا عند التعيين، ويصير بتعيينه فرضاً على من عينه لا لمكان الجهاد ولكن لطاعة الإمام. والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر.» الحديث قال ابن النحاس: العينة: بكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة تحت بعدهما نون وهاء تأنيث.

قال البيهقي في «الشعب» (2 - 29): التبايع بالعينة، أن يقول الرجل: اشترِ كذا وكذا وأنا أشتريه منك بربح كذا وكذا، انتهى.

وقال الهروي⁽¹⁾ في الغريبين: العينة أن يبيع من رجل سلعة بثمان معلوم إلى أجل مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به وهذا مكروه.

(1) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبيد الهروي، المؤدب، صاحب غريبي القرآن والحديث مات سنة إحدى وأربعمائة. «معجم الأدباء لياقوت» (4/ 260 - 261).

فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها من طالب العينة بثمن أكثر مما اشتراه إلى أجل مسمى ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل أيضاً من الثمن فهذه أيضاً عينة وهي أهون من الأولى هو جائز عند بعضهم .

وسميت عينة لحصول النقد لصاحب العينة وذلك أن العين هو المال الحاضر فالمشتري إنما يشتري لبيعها بعين حاضر يصل إليه من فوره، انتهى .

وقال أفضى القضاة الماوردي في الحاوي : سميت عينة لأنها أخذ عين بريح العين : الدراهم والدنانير .

قال ابن النحاس : ومعنى الحديث : أن الناس إذا تركوا الجهاد وأقبلوا على الزرع ونحوه تسلط عليهم العدو لعدم تأهبهم له واستعدادهم لنزوله ورضاهم بما هم فيه من الأسباب فأولاهم ذلاً وهواناً لا يتخلصون منه حتى يرجعوا إلى ما هو واجب عليهم من جهاد الكفار والإغلاظ عليهم وإقامة الدين ونصرة الإسلام وأهله وإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر وأهله .

ودلّ قوله ﷺ : «حتى ترجعوا إلى دينكم» على أن ترك الجهاد والإعراض عنه والسكون إلى الدنيا خروج عن الدين ومفارقة له وكفى به ذنباً وإثماً مبيئاً . «المشارع» (١/ ١٠٦ - ١٠٧) .

وقوله ﷺ : «وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» قال المناوي رحمه الله : أي : حتى يرجعوا عن ارتكاب هذه الخصال المذمومة، وفي جعلها إياها من غير الدين وأن مرتكبها تارك للدين مزيد زجر وتهويل وتقريع لفاعله، وهذا من أقوى أدلة من حرم بيع العينة خلافاً لما عليه الشافعية من قولهم بالكراهة دون التحريم والبطلان .

قال ابن النحاس : فإن قلت : نرى الناس قد أعرضوا عن الجهاد! والأغنياء فيهم كثير؟

فالجواب : أن الغني هو كما جاء في الحديث الذي رواه البخاري (6446)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» فالغنى : غنى القلب والفقر فقر القلب والذي نشاهده من الناس لما أعرضوا عن الجهاد والغنائم وأقبلوا على الاكتساب من الجهات المختلفة من مباح وغيره سلط الله عليهم فقر قلب وشدة حرص وغلبة شح، فمنعوا كثيراً من الحقوق

الواجبة وتناولوا كثيراً من الحرام كالمكوس⁽¹⁾ نحوها وصار القليل من الدنيا عندهم خطيراً جليلاً وأذلهم الحرص والطمع فقلّ أن تجد منهم أحداً إلا وقد استولت عليه الذلة لمن يرى أن رزقه يأتي من جهته واستعبده له الطمع والخوف من فواته .

ولو كان غنياً لكان حراً فهو في الحقيقة وإن كان ذا ثروة فهو فقير، وإن كان في ظاهره عزيزاً فالذل قد استولى على قلبه وسكن فيه وليس عند من يرتزق من سيفه شيء من ذلك لأن رزقه من الغنيمة مأخوذ بالسيف ليس لأحد غير الله فيه منة .

ولما كانت الغنيمة حلالاً محضاً ليس فيها شبهة كانت سبباً في تنوير القلب وطرد ظلمات الشح والبخل والحرص من ساحته، فصاحب الغنيمة وإن كان فقير اليد فهو غني النفس، وإن كان دثاره الظاهر الذلّ والمسكنة فشعاره الباطن العز والعظمة كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

وأما من اكتسب من الشُّبُهَةِ وَأَذَلَّهُ الطَّمَعُ بِالخَلْقِ فهو وإن كان عزيزاً في الظاهر فقلبه بأنواع الذل عامر، وإن كان في الظاهر غنياً بما جمع، فهو في الباطن فقير بالحرص والطمع وتأبى المكاسب الدنية، إلا أن تورث هذه الأخلاق الردية، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213] قال صاحب شفاء الصدور: وفي حديث علي عليه السلام أنه قال: «الجهاد في الله باب من أبواب الجنة ومن ترك الجهاد في سبيل الله ألبسه الله الذلة وشمله البلاء ودُيِّتْ بالصغار وسيم الخسف ومنع النَّصْفَ» يعني الانتصاف .

قوله: «ديت» بضم الدال المهملة وتشديد الياء كسرهما وآخره ثاء مثلثة، معناه ذلل ومنه طريق مديت أي مذلل .

كلمات تكتب بماء الذهب. لكل من رغب عن الجهاد، أو تقاعس عنه
— للشيخ ابن النخاس — ﷺ **تعالى:**

قال: اعلم أيها الراغب عما افترض عليه من الجهاد، الناكب عن سنن التوفيق والسداد، إنك قد تعرضت للطرد والإبعاد، وحرمت - والله - الإسعاد بنيل المراد، ليت شعري هل سبب إحجامك عن القتال، واقتحامك معارك الأبطال وبخلك في سبيل الله بالنفس والمال، إلا طول أمل، أو خوف هجوم أجل .

أو فراق محبوب من أهل ومال، أو ولد وخدم وعيال، أو أخ لك شقيق، أو قريب

(1) المكوس: هي الضرائب تُدفع بغير حق .

عليك شفيق، أو ولي كريم أو صديق حميم، أو ازدياد من صالح الأعمال، أو حب زوجة ذات حسن وجمال، أو جاه منيع، أو منصب رفيع، أو قصر مشيد، أو ظل مديد، أو ملبس بهي، أو مآكل هني؟!.

ليس غير هذا يقعدك عن الجهاد، ولا سواه يبعدك عن رب العباد، وتالله ما هذا منك أيها الأخ بجميل، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: 38].

إصغ لما أملي عليك من الحجج القاطعة، واستمع ما ألقى عليك من البراهين الساطعة، لتعلم أنه ما يقعدك عن الجهاد سوى الحرمان، وليس لتأخرك سبب إلا النفس والشيطان، أما سكونك إلى طول الأمل، وخوف هجوم الأجل، والاحتراز من الموت الذي لا بد من نزوله، والإشفاق من الطريق الذي لا بد من سلوك سبيله، فوالله إن الإقدام لا ينقص عمر المقدمين، كما لا يزيد الإحجام عمر المستأخرين: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34].

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: 11].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: 57].

وإن للموت لسكرات أيها المفتون، وإن هول المطلع شديد ولكن لا تشعرون، وإن للقبور عذاباً لا ينجو منه إلا الصالحون وإن فيه لسؤال الملكين الفاتنين: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَافِلِينَ﴾ [إبراهيم: 27].

ثم بعد ذلك الخطر العظيم إما سعيداً فإلى النعيم المقيم، وإما شقيماً فإلى عذاب الجحيم، والشهيد أمن من جميع ذلك، لا يخشى شيئاً من هذه المهالك.

- وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يجد الشهيد من ألم القتل إلا كمسّ القرصة»⁽¹⁾.

(1) الحديث بتمامه رواه أحمد (7953) والترمذي (1668) والدارمي (2408) وغيرهم بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما يجد الشهيد من مسّ القتل، إلا كما يجد أحدكم مسّ القرصة» لفظ أحمد.

فما يقعدك أيها الأخ عن انتهاز هذه الفرصة، ثم تجار في القبر من العذاب، وتفوز عند الله بحسن المآب، وتأمين من فتنة السؤال، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فرحين بما آتاهم الله من فضله مستبشرين، أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في عليين. فكم بين هذا القتل الكريم، وبين الموت الأليم.

وإن قلت: يعوقني عن الجهاد أهلي ومالي، وأطفالي، وعيالي، فقد قال الله تعالى قولاً بيناً لا يخفى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبا: 37]، وقال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَنْصَبَةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: 14].

وقال تعالى: ﴿أَنَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَالُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرِيهَ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

- وقال ﷺ: «موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، وغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وخمار جارية من أهل الجنة خير من الدنيا وما فيها»⁽¹⁾.

فكيف يصدق عن هذا الملك العظيم أهل عن قليل يكونون في الأموات، تمزقهم أيدي الشتات، وتفترقهم نوازل الآفات، مع ما يصدر منهم من النكد والعداوات، والأخلاق السيئات، والحققد على ما عرضت من حظوظهم منك للفوات، وهجرانهم إياك عند قلة المال، وتحولهم عن ودك عند تغير الأحوال، وأعظم من ذلك فرارهم منك في المآل ومحاسبتهم إياك على مثاقيل الذر في موقف السؤال، حتى يود كل واحد منهم لو نجا، وحملك ما عليه من الذنوب والأثقال.

أم كيف يصدق ما هو في معرض الذهاب والزوال، ينفر عنك عند فقدة الأهل وتتفرق العيال، ويهجر كل صديق كان يكثر لك الوصال، ثم يوم القيامة تسأل عنه من

(1) الحديث بتمامه رواه البخاري (2796) وغيره بلفظ قريب من حديث أنس رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

أين اكتسبت، وفيم أنفقت؟ ويا له من سؤال، في يوم تشيب فيه الأطفال، وتعظم فيه الأهوال وتكثر فيه الزحام ويشتد الخصام وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها من هول ذلك المقام.

ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ويحاسب فيه الأغنياء على النقيير والقطمير، والخطير والحقير، والناقص والتمام، ويسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بخمس مائة عام⁽¹⁾، فيأكلون ويشربون ويتنعمون في دار السلام، وأنت أيها الغني محبوس عنهم بسبب مالك، تخشى أن يؤمر بك إلى مالك.

أفتحزن على فراق ما إن قلَّ أكثر همك وعناك، أو كثر فأغناك وأطغاك وإن مت وتركته وراءك أرداك، وبين يديك موقف الحساب عليه وما أدراك، وهب أن لك الدنيا بحذافيرها، أليس إلى الفنا مصيرها، ولا بد من فراقك لها، وإن ركنت إلى غرورها. وإن تذكرت ولدك الكريم وحنوت عليه حنو الأب الشفيق الرحيم، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التغابن: 15].

وتالله الله أرحم بالولد من أبيه وأمه، وأخيه وعمه، وكيف لا وهو قد رباها قبلهم بثدي رحمته في ظلمات الأحشاء، وقلبه بيد لطفه ورأفته في أرحام الأمهات وأصلاب الآباء.

فأين كانت شفقتك عليه إذ ذاك، وحنوك وبعذك عنه ودنوك، وكيف يقعدك عن دار النعيم، وجوار الرب الكريم، ولد إن كان صغيراً فأنت به مهموم، أو كبيراً فأنت به مغموم، أو صحيحاً فأنت عليه خائف، أو سقيماً فقلبك لضعفه واجف⁽²⁾، إن أدبته غضب وشرد، أو نصحته حرد⁽³⁾ وحقق، مع ما تتوقعه من العقوق المعتاد، من كثير من الأولاد.

إِنْ أَقْدَمْتَ جَبْنَكَ، وَإِنْ سَمَخْتَ بِحَلْكَ، وَإِنْ زَهَدْتَ رَغْبَكَ، عَظُمْتَ بِهِ الْفِتْنَةَ، وَأَنْتَ تَعْدُهَا مِئَةً، وَعَمَّ بِهِ الْبَلَاءُ، وَأَنْتَ تَرَاهُ مِنَ النِّعْمَاءِ.

(1) وذلك كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد (7946) والترمذي (2353) وغيرهما، واللفظ للترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم. وهو خمسمائة عام».

(2) واجف: أي خائف.

(3) حَرَدَ - بالتحريك - أي غَضِبَ.

تود سروره بهمك، وفرحه بحزنك، وريحه بخسرانك، وزيادة درهمه وديناره بخفة ميزانك، تتكلف من أجله ما لا تطيق، وتدخل بسببه في كل مضيق، ألقه يا هذا عن بالك إلى من خلقت وخلقته وتوكل في رزقه بعدك على الذي رزقك ورزقه، أسلمت إلى الله تديره في الملك والملكوت، لا تسلم إليه تدير ولدك بعدما تموت، وهل إليك من تديره قليل أو كثير: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 118].

والله لا تملك له ولا لنفسك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً لا حياة ولا نشوراً، ولا تستطيع أن تزيد في عمره يسيراً، ولا في رزقه فقيراً، وقد تفترسك المنية بغتة، فتمسي في قبرك صريعاً وبعملك أسيراً، ويصبح ولدك العزيز بعدك يتيماً، ويقسم مالك وارثك عدواً كان أو رحيماً، ويفترق عيالك ظاعناً ومقيماً.

وتقول يا ليتني كنت مع الشهداء فأفوز فوزاً عظيماً، فيقال لك: هيهات هيهات، فات ما فات، وعظمت الحسرات، وخلوت بما قدمت من حسنات أو سيئات، ألا واسمع قول الله العزيز الغفور، محذراً لك ما أنت فيه من الغرور: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33] هذا وإن كان ولدك من السعداء، فستجمع بينك وبين الجنان، وإن كان من الأشقياء، فليكن من الآن، لا يجتمع أهل الجنة مع أهل النار، ولا الأخيار مع الأشرار، ولعل الله يرزقك الشهادة فتشفع فيه، وتكون بفراقك له ساعياً في أن تنجيه، احرص على ما ينجيك من العذاب، واجهد فيه، فغداً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: 34 - 37].

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 213].

وإن قلت: يشق عليّ فراق الأخ والقريب، والصديق والحبيب، فكأنك بالقيامة وقد قدمت على الخلق أجمعين: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: 67]، فإن كانت الصداقة لله، فستجمع بينكما عليون، في نعيم أنتم فيه خالدون، وإن كانت الصحبة لغير الله، فالفراق الفراق، قبل أن يحشر الرفاق مع الرفاق، لأن المرء في الآخرة مع محبوبه، لمشاركته إياه في مطلوبه، فإن كان من الأتقياء نفعه أخاه، وإن كان من الأشقياء، ضره وأرداه، مع ما يتوقع في هذه الدار من

الأقرباء والأصدقاء من الجفاء، والصدّ وقلة الوفاء، وكثرة الكدر وعدم الصفاء، وتغيّره لديك، وتلونهم عليك، وإساءتهم إليك، وهجرهم إياك، عند فوات الأغراض، وما تجنّه قلوبهم من العلل والأمراض، إن وقعت في شدة تخلّوا عنك، أو واقعت زلة تبرؤوا منك، إخوان السراء وأعداء الضراء، صداقتهم مقرونة بالغنا، وصحبتهم مشحونة بالعناء إن قلّ مالك ملوك، وإن حالّ حالك، فما أخوك أخوك، وإن شككت في شيء من هذا البيان، فسيظهر لك يقيناً عند الامتحان، وإن ظفرت يدك منهم، بأخ من إخوان الصفا! وأين ذاك، أو خِل من خِلان الوفا، وما أراك، فأنتما غداً كما قال أصدق القائلين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَيْلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَدِّمِينَ ۗ﴾ [الحجر: 47].

ولا يقعدك يا هذا عن الجهاد حبيب أو قريب، فربما افتترقتما قبل المغيب، ففاتك الثواب العظيم، وبان عنك الصديق الحميم، حرمت ما ترومه من الدرجات، وندمت فلم يغنك الندم على ما فات.

- وفي الحديث: إن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «يا محمد إن الله يقول لك: عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به».

فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات اليسيرة، من ذكر الموت وفراق الأحبة، والجزاء على الأعمال أبعدها الإنذار إنذار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13].

وإن قلت: يقعدني منصبى وجاهي الرفيع، وعزى وحجابى المنيع، فليت شعري كم فارق منصبك، محباً له إلى أن وصل إليك، وكم زال ظله من مُغِيط نفسه به إلى أن ظلل عليك، وسيبين عنك مما عنهم بان، وكأنك بذلك وقد كان، فإذا أنت لفراقه ثكلان، وقبلك مغمور بالحسد، وصدرك معمور بالأحزان، فلم يدم لك ما أنت فيه من المنصب والجاه، ولم تفز بما أنت طالبه من أسباب النجاة، وإن لآخر من يخرج من النار، ويدخل بعد الداخلين، مثل ملك أعظم من ملوك الدنيا، وعشرة أمثاله معه أجمعين.

فما ظنك بمن يكون مع السابقين الأولين، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، مع ما لا يخفى عليك مما في المنصب، من النصب والتعب وشر العاقبة وسوء المنقلب، وما تكسب به من كثرة الأعداء والحساد، وما اشتملت عليه بواطنهم

من الضغائن والأحقاد، وشماتتهم بك عند زواله، وتلهفك حزناً على ما فات من إقباله، وزوال أكثر حشمك وخدمك، وإعراض من كان يسر بتقيل قدمك.

وإن قلت: يشق عليّ فراق قصري وظله، وبنائه المشيد وعلو محله، وحشمي فيه وخدمي، وسروري ونعمي، فليت شعري هل هو إلا بيت من طين وحجر وتراب، ومدد وحديد وخشب، وجريد وقصب، إن لم يكنس كثرت فيه القمامة، وإن لم يسرج فما أشدّ ظلامه، وإن لم يتعاهد بالبناء فما أسرع انهدامه، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب، وعن قليل يصير كالتراب، يتفرق عنه السكان، وتنتقل عنه القُطّان، ويعفو أثره ويندرسُ خبره، ويُمحى رسمه، ويُنسى اسمه.

استبدل أيها المغرور، قصرك مع سرعة فثائه، بدار باقية قصورها عالية. وأنوارها زاهية، وأنهارها جارية، وقطوفها دانية، وأفراحها متوالية.

- إن سألت عن بنائها، فَلَبِنَةُ فضة، وَلَبِنَةُ ذهب، ولا تَعَبَ فيها، كلا ولا نصب، وإن سألت عن ترابها، فالمسك الأذفر⁽¹⁾.

وإن سألت عن حصائها، فاللؤلؤ والجوهر.

- وإن سألت عن أنهارها، فأنهارٌ من لبن، وأنهارٌ من عسل، ونهر الكوثر⁽²⁾.

- وإن سألت عن قصورها، فالقصر من لؤلؤة مجوفة، طولها سبعون ميلاً في الهواء، أو من زمردة خضراء، باهرة السنا، أو ياقوتة حمراء عالية البناء، وللمؤمن في كل زاوية من زواياها أهل وخدم، لا يبصر بعضهم بعضاً لسعة الفنا⁽³⁾.

(1) المسك الأذفر: هو أجود أنواع الطيب عند العرب، فَوَاحِ الرَّائِحَةِ.

(2) يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: 15]، ويشير أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكُوْثَرَ ۝۱﴾ [الكوثر: 1]، وفي «صحيح البخاري» (4964) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه قال: لما عُرِجَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: «أَتَيْتُ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّوْلُؤِ مُجَوَّفٌ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكُوْثَرُ».

(3) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (4879) ومسلم (2838) وغيرهما من حديث عبد الله بن قيس رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون».

وإن سألت عن فروشها فمن إستبرق بطائنها، فما ظنك بظواهرها؟
وهي مرفوعة بين الفراشين أربعين سنة، وليس عليها نوم ولا سِنَّة، [أي: نُعاس] بل
هم عليها متكئون مقبلون: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ﴾ (٢٥) [الطور: 25].

وإن سألت عن أكلها، فموائدها موضوعة، وأكلها على الدوام، وثمارها لا ممنوعة
ولا مقطوعة لطول المقام، بل (فاكهة) نضيجة، ﴿وَفَكَهَهَا مِمَّا يَنْتَحِرُونَ﴾ (٢٥) وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا
يَسْتَهْوُونَ ﴿٢١﴾ [الواقعة: 20، 21] ويسقون فيها: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (٢٥) خِتْمُهُ مِسْكٌ
وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٣﴾ [المطففين: 25، 26].

لا يتغوط أهلها، ولا يبولون، ولا يبصقون، ولا يمتخطون، أكلهم يرشح من
جلودهم كالمسك ريحاً، ولوناً كالجمان، فإذا البطن قد ضمير، كما كان (1).

وإن سألت عن خدمها، فالولدان المخلدون: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ
حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُورًا
أَسْوَدَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَدْتُهُمْ رُزُقُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُنْزًا جَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾
[الإنسان: 19 - 22].

وبالجملة فكل ما ذكرت لك، هو كما جاء في الخبر، وإلا ففي الجنة ما لا عين
رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (2).

(1) يشير إلى الحديث الذي رواه أحمد (14408) ومسلم (2835) وغيرهما، من حديث
جابر رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ. وَلَا يَتَيَلَّوْنَ
وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ». قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «جُشَاءً وَرَشْحٌ
كَرَشْحِ الْمَسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْيِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّقْسَ». لفظ مسلم.

ويشير أيضاً إلى ما رواه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤) وغيرهما من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ، صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ
لَيْلَةَ الْبَدْرِ. لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا. آيَاتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنْ
الدَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَمَجَارِمُهُمْ مِنَ الْأَلْوَةِ. وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ.
يُرَى مِثْقَالُ حَبِّ سَائِقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ. مِنَ الْحُسْنِ. لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغِضَ. قُلُوبُهُمْ
قَلْبٌ وَاحِدٌ. يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا». لفظ مسلم.

(2) يشير إلى ما رواه البخاري (4779) ومسلم (2824) وغيرهما، من حديث أبي هريرة عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت،
ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة؛ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧) [السجدة: 17]. لفظ البخاري.

وإن سألت عن مدة بقائهم في هذا النعيم العظيم، والمقام الكريم الجسيم، فهم أبدأ فيه خالدون، أحياء لا يموتون، شباب لا يهرمون، أصحاء لا يسقمون، فرحون لا يحزنون، راضون لا يسخطون، من خوف القطيعة والطرْد أبدأً آمين⁽¹⁾. في مقام أمين: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرُهُمْ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: 10] فقس بعقلك ما بين هذا الملك العظيم الخطير وبين قصرك ذي العمر القصير، والقدر اليسير، وانظر إذا فارقتك بالشهادة إلى ماذا تصير، إن المقام فيما أنت فيه لغرور، ﴿وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلُ حَبِيرٍ﴾ [فاطر: 14].

وإن قلت أرغب في التأخير لإصلاح العمل، فهذا أيضاً ناتج من الغرور، وطول الأمل، وتالله ما تم تأخير في الأجل المقدر: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر: 5، 6].

ليس هذا والله إلا من مصايد إبليس اللعين، لا من مقاصد الأولياء والصالحين، أليس الصحابة وأخيار التابعين، أولى منك بهذا القصد إن كنت من الصادقين، لو ركنوا إلى تأخير الآجال، لما ارتكبوا في الله عظيم الأهوال ولما جاهدوا المشركين والكفار، واتحموا البلاد والأمصار، ألا تصغي بأذنك يا هذا المفتون، إلى قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]. ألا تلقي بالك؟ إن كنت فطيناً فهيماً، وتفكر في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّضَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَعِيدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95].

أيها المغرور، وإن نوم المجاهد أفضل من قيام الليل، وصيام الدهور. وهب أنك صادق فيما تقول، أليس عملك متردداً بين الردِّ والقبول؟ أليس أمامك ما يفرح ويهول، أليس قدامك يوم الحشر المهول؟ ولا والله تدري هل ينجيك عملك، إن عملت أو يرديك.

(1) يشير إلى ما رواه الإمام أحمد (11905) ومسلم (2837) وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، قال: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا. وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» فَذَلِكَ قَوْلُهُ رضي الله عنه: ﴿وَوَدُّوا أَنْ تَلِكُمُ الْجَنَّةُ أُرْسَتْهُمَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

﴿وَبَعَاكَ مَا تُحْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25]، ﴿وَلَكِنْ مَتَّمَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨) ﴿

[آل عمران: 158].

وإن قلت: لا تطيب نفسي بفراق زوجتي وجمالها، وأنسي بقربها، وسروري بوصالها، فهب أن زوجتك أحسن النسوان، وأجمل أهل الزمان، أليس أولها نطفة مذرة⁽¹⁾ وآخرها جيفة قذرة، وهي فيما بين ذلك تحمل العذرة، حيضها يمنعك شطر عمرها.

وعقوقها لك أكثر من برها، إن لم تكتحل نعمشت عينها، وإن لم تتزين ظهر شينها، وإن لم تمتشط شعث شعورها، وإن لم تدهن طفى نورها، وإن لم تطيب ثقلها، وإن لم تتطهر نتنت.

كثيرة العلل، سريعة الملل، إن كبرت أيسر، وإن عجزت⁽²⁾ هرمت، تحسن إليها جهدك، فتنكر ذلك عند السخط.

- كما قال ﷺ: «لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأيت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»⁽³⁾.

تروم منها أقدر ما فيها، وتخاف هجرها، وتخشى تجافيتها يحملك حبها على الكد والتعب، والشقاء الشديد والنصب، توردك الموارد المهلكة، وترضى في أدنى هواها بهلاكك وما أوشكه.

تودك لمرادها منك فإن فات أعرضت عنك، وهجرتك وطلبت سواك، وملتكم وأظهرت قلاك⁽⁴⁾، وقالت بلسان حالها، إن لم تفصح بمقالها، واصلني وأنفق، أو فارقني وطلق، وبالجملة لا يمكن أن تستمتع بها إلا على عوج، ولا تدوم صحبتك إياها إلا مع ضيق وحرَج.

يا لله العجب، كي يقعدك حب هذه، عن وصل من خلقت من النور، ونشأت في

(1) نطفة مذرة: أي فاسدة.

(2) عَجَزَت المرأة تعجُز بالضم أي: صارت عَجُوزاً، وعجزت بالكسر تعَجَز عَجْزاً وعَجْزاً بالضم عظمت عجيزتها «الصحاح» (3/884).

(3) الحديث بتمامه رواه البخاري (29) ومسلم (907) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(4) بَأْتَم منه.

(4) القلى: البغضاء.

ظلال القصور، مع الولدان والهور، في دار النعيم والسرور، والله لا يجفُّ دم الشهيد حتى تلقاه، وتستمتع بشهود نورها عيناه، حوراء عيناء، جميلة حسناء، بكر عذراء، كأنها الياقوت، لم يطمثها إنس قبلك ولا جان.

كلامها رخيرم، وقدها قويم، وشعرها بهيم وقدرها عظيم، جفنها فاتر، وحسنها باهر، وجمالها زاهر، ودلالها ظاهر، كحيل طرفها، جميل ظرفها، عذب نطقها، عجب خلقها، حسن خلقها، زاهية الحلى، بهية الحلل، كثيرة الوداد، عديمة الملل، قد قصرت طرفها عليك، فلم تنظر سواك، وتحببت إليك، بكل ما وافق هواك.

لو برز ظفرها لطمس بدر التمام، ولو ظهر سوارها ليلاً، لم يبق في الكون ظلام، ولو بدا معصمها لسي كل الأنام، ولو اطلعت بين السماء والأرض، لملأ ريحها ما بينهما، ولو تفلت في البحر المالح، عاد كأعذب الماء.

كلما نظرت إليها ازدادت في عينك حسناً، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسناً، أيجمل بعقل أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها، كيف وله في الجنة من الحور العين أمثال أمثالها؟

واعلم أن فراق زوجتك تلك لا بد منه، وكان قد وقع، والجنة إن شاء الله تجمع بينكما ونعم المجتمع، وما بينك وبين وصلها إن كانت من الصالحات، إلا وقت لا بد من فراقك لها فيه وهو الممات، فتجدها في الآخرة أجمل من الحور العين بما لا يعلمه إلا رب العالمين، قد ذهب ما تكره منها، وزال ما يسوء عنها، وحسن خلقها، وكمل خلقها.

كحلاء نجلاء، حسناء زهراء، بكرأ، عذراء، قد طهرت من الحيض والنفاس، وكرمت منها الأنواع والأجناس، وزال اعوجاجها، وزاد ابتهاجها، وعظمت أنوارها، وجل مقدارها، وفضلت على الحور العين في الجمال، والأنوار، كفضلهن عليها في هذه الدار، فأعرض عنها اليوم لله فسيعوضك الله عنها، وإن كانت من أهل الجنة فلا بد لك منها.

ولا يلهينك يا هذا عن دار القرار، الاغترار بشيء من زخرف هذه الدار، فوالله ما هي بدار مقام، ولا محل اجتماع والتثام، دار إن أضحكت اليوم أبكت غداً، وإن سرّت أعقب سرورها الردى، وإن جلت فيها النعم جميعاً، حلت فيها النقم سريعاً، إن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرقت، وإن ضمت شتت، وإن نقصت تغصت، وإن

أغنت عنت⁽¹⁾، وإن زادت أبادت، وإن عمّرت دمّرت، وإن أسفرت أدبرت، وإن راققت أرقت، وإن صافت حافت⁽²⁾، وإن عمّت بنوالها غمّت بوبالها، وإن جادت بوبالها جاءت بفصالها.

قربها بعيد، وحببها طريد، شرابها سراب، وعذبها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبين والفراق، والشقاء والشقاق، والوصب⁽³⁾ والنصب، والمشقة والتعب، كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا.

لا ثقة بعهودها، ولا وف لوعودها، محبتها تعبان، وعاشقها ولهان⁽⁴⁾، والوائق بها خجلان، قد سترت معاييبها، وكتمت مصائبها، وأخفت نوائبها⁽⁵⁾ وخدعت بأباطيلها، وغرت ببراطيلها، ونصبت شباكها، ووضعت أشراكها، وبهرجت⁽⁶⁾ زيفها، وجردت سيفها، وأبدت ملامحها، وستررت قبائحها، ونادت الوصال الوصال أيها الرجال، فمن رام وصالها، وقع في حبالها، وبدا له سوء حالها، وعظم نكالها، ووقع في أسرها، لجهله بشرها، وحقا به مكرها، حيث لم يتبصر في أمرها فعصّ يديه ندماً، وبكى بعد الدمع دماً، وأسلمه ما طلب، إلى سوء المنقلب، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب.

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك. وأطلق نفسك من أسرها قبل أن يعسر الفكاك وانهض على قدم التوفيق والسعادة، عسى الله أن يرزقك من فضله الشهادة، ولا يقعدك عن هذا الثواب، سبب من الأسباب، فذو الحزم⁽⁷⁾ السديد، من جرّد العزم الشديد، وذو الرأي المصيب من كان له في الجهاد نصيب.

ومن أخلد⁽⁸⁾ إلى الكسل، وغرّه الأمل، زلّت منه القدم، وندم حيث لا يغني الندم،

(1) عناه: كلفه ما يشق عليه. المعجم الوسيط (2/639).

(2) أي: جارت وظلمت «الصحاح» (4/1347).

(3) الوصب: المرض. «الصحاح» (1/223).

(4) الوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد. «الصحاح»: (6/2256).

(5) النوائب جمع نائبة وهي المصيبة. «الصحاح» (1/229).

(6) بهرج الشيء: أباحه.

(7) الحزم: ضبط الأمر.

(8) أخلد: أي ركن واطمأن.

وَقَرَعَ السَّنَّ عَلَى مَا فَرَطَ وِفَاتٍ، إِذَا شَاهَدَ الشَّهَادَةَ فِي أَعْلَى الْغُرَفَاتِ: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: 4] ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].



خاتمة - في مصير المتخلف عن الجهاد طواعية:

قال الله العظيم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْتُكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: 81 - 84].

قال ابن النحاس: فانظر رحمك الله إلى هذا الوعيد الشديد والخزي العظيم والوبال الأليم لمن تخلف عن الجهاد وتقاعد عنه وكره الإنفاق فيه وهذه الآيات وإن كانت نزلت أقوام بأعيانهم فإن فيها ترهيباً وتهديداً لمن فعل ك فعلهم وتخلف عن الجهاد الواجب كتخلفهم وناهيك في ذلك فعلاً شنيعاً ووعيداً فظيماً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

